مقدمة:

بسم الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد وبعد:

يعدّ العهد العباسي العصر الذهبي بالنسبة للأدب العربي عامة، لأنه عصر التطور الشامل في شتى أنواع الفكر والأدب، عصر الحركات الثقافية في أوج صراعها، والنظم الاجتماعية والحضارية في أوج تفاعلها. فيه عرفت الترجمة أرقى مظاهر انتعاشها، ونقلت كل العلوم الأجنبية إلى العربية، فازداد بذلك النتاج الفكري والأدبي عند العرب زيادة على اهتمامهم أنفسهم وتأليفهم وتدوينهم وعنايتهم بالعلم والعلماء، فكان أن ظهر تنوع وتوسع في الأغراض والأنواع الأدبية من سياسة واجتماع ودين وفلسفة.

كل هذا كان بفضل رجال حملوا لواء الفكر والأدب فراحوا يعصرون ذاكرتهم ومعارفهم ليسجلوا لنا تجاربهم، رجال هانت في أعينهم المشقات حين قاسوها بالغايات. وكان منهم أبو العلاء الساخط، وابن حجاج الماجن، وأبو العتاهية الزاهد، والبحتري الواصف، والفارابي الفيلسوف. وكان منهم أيضا أبو نواس بخمرياته، وأبو فراس بفروسياته، وأبن العميد بكتاباته، وقبل كل هؤلاء وبعدهم كان أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ممثلا وسفيرا لعصره في بؤسه وترفه في غناه وفقره. المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس. ملأ الدنيا بدويه الصارخ المنبعث من أعماق نفسه الثائرة، وشغل الناس بنتاجه الضخم كماً وكيفا حيث كان للكلمة الواحدة عنده أكثر من معنى وأكثر من تفسير لأن شعره كان تبعا لنفسه ولأن نفسه كانت متقلبة تقلب عصره. فقراءتك لشعره قد تغنيك عن رؤيته، ولا فرق بين أن تراه أوتسمع عنه. ومن هنا تشكل خيط الغموض الذي طبع نفسيته وتنقل بعدها إلى شعره فشكلا بذلك معا ظاهرة فريدة من نوعها وهي التي شكلت بعده مصدرا غنيا ومادة خصبة لكل باحث. فكان بذلك قبلة لكثير من الأقلام منذ القديم وحتى عصرنا

هذا محاولين في ذلك الوصول إلى أعماق نفسه، أو حتى التقرب منها. لكن مع هذا بقيت جل المحاولات والدراسات حول هذا الشاعر مجرد مواقف ذاتية لم تخل من العاطفة. فلا محاولات خصومه ولا محاولات أنصاره - تقريبا- استطاعت أن تخرج لنا المتبي كما صوره شعره، لأن شعره جاء حافلا بكل مظاهر الرضا والحقد في آن واحد.

وبين محاولات الخصوم والأنصار وجدتني أسأل نفسي عن أي الفريقين أحق بالإتباع والانتصار. وبعد قراءة أولية لديوان الشاعر وبعض محاولات الفريقين معا توصلت إلى أنه لم يكن ليهمني أويفيدني الانتصار لطائفة دون أخرى. فوقفت وسطا بين الطائفتين ألتمس لنفسي عذرا يخولها الدخول في أغوار هذه الشخصية، فرحت أبحث عن خيط أقتفي أثره ليمكنني من الوصول إلى الهدف المنشود دون الانسياب وراء رأي معين. وكان أن اهتديت إلى هذا الموضوع أوهذه الظاهرة التي طبعت أهم نتاجه الفكري والعلمي وهي ظاهرة الأنا.

ولست أزعم في هذا أن محاولتي هذه للتقرب من الشاعر ستستغني في مجملها عن رأي الفريقين، ولست أقول إنها المحاولة الأخيرة التي يرتجي منها الكشف النهائي عن هذه الشخصية وأنّى لي ذلك. بل أؤكد أنها مجرد محاولة ومهما صنعت بها فإنها لن تصل إلى مستوى المحاولات والدراسات المقدمة من طرف الأدباء والنقاد الكبار. ولي في ذلك من الأعذار ما يحول بيني وبين هذه القضية.

والأنا كمصطلح استخدمه النحويون للتدليل به على ضمير الرفع المنفصل الذي هو للمتكلم. بينما أطلقه علماء النفس على ذلك الجزء الذي نما تحت تأثير العالم الخارجي والذي يقوم بسلطة الأشراف على الحركة الإرادية وبحفظ الذات.

وليس بعيدا عن هذين التعريفين رحنا نبحث عن معنى المصطلح في ذات الشاعر نفسها، من خلال احتضانها واحتوائها، ومن خلال نظرتها لنفسها مقارنة مع غيرها، ومن خلال اعتدادها بنفسها أو تلخيصها لروح أمتها. فجاء بذلك شعره مترجما لنفسيته

القلقة والمضطربة التي أرغمها الشعور بالأمن والإحساس بالضعة والغربة وسط مخالفات عصر يعيش أزمة السقوط المحققة. محاولين في ذلك الوصول إلى أهم الأسباب التي كونت هذه الشخصية بدءا بأوضاع عصره وحياته مرورا بعوامل أخرى من ذكاء مفرط وشاعرية دفاقة وذاكرة قوية و نفس طموحة.

ولقد قسمنا بحثنا هذا إلى فصلين أساسيين ومدخل، تعرضنا في المدخل إلى حياة الشاعر وأثرها في بروز الأنا مركزين على حياته العامة بأشكالها السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ثم حياته الخاصة من مولد ونسب ونشأة وأخلاق. محاولين في كل هذا الأمر التركيز على أهم العناصر الأساسية التي شكلت أرضية خصبة لنشوء الأنا عند الشاعر. ثم إنتقلنا إلى الفصل الأول وفيه فصلنا أنواع الأنا عند الشاعر من خلال شعره حيث بأنا بالأنا المتعالية ثم أناه الغاضبة فالأنا الحزينة ثم الأنا العاشقة وأخيرا الأنا الحكيمة مستشهدين في كل هذا بما ورد له من أشعار في الإطار مع التحليل والتفسير. ثم انتقلنا إلى الفصل الثاني وفيه تعرضنا للصورة الفنية وعلاقتها بالأنا عند الشاعر، حيث بدأنا بموضوعات الصورة لدى الشاعر فأشكالها البلاغية ثم لغتها وموسيقاها، محاولين في كل هذا أيضا الوصول إلى العلاقة بين نفسية الشاعر من جهة وبين طبيعة الصور المستخدمة من جهة أخرى حيث جاءت الصورة عنده قالبا لأناه ومترجمة لها. ثم في الأخير ختمنا بحثنا بخلاصة موجزة لمجمل وأهم ما سبقت الإشارة إليه في هذا البحث.

وطبيعة الموضوع كما ترى فرضت علينا توظيف المنهج النفسي أولا ثم المنهج الاستقرائي التحليلي ثانيا لأن الهدف من البداية كان هو الوصول إلى نفسية الشاعر والتغلغل في أعماقها. ثم مدى انعكاس كل ذلك على شعره. لأن الأدب عموما هو تعبير عن النفس الإنسانية في مجمل مرحلها. ومن هنا اتضح هذا المنهج في فهم هذا العمل الأدبي.

ثم لأن شعره كان أصدق تعبيرا من الذين كتبوا عنه، لأن كل الدراسات التي جاءت حوله لم تخل من العاطفة كما قلنا. ولهذه الأسباب وغيرها كان منهجنا الثاني قائما على استقراء شعره والوقوف على الأبيات التي تجسد الظاهرة الأنانية عنده وهذا بالرجوع إلى ديوانه مباشرة.

وإذا كان البرقوقي قد نبهنا إلى وجود مجموعة كبيرة من الشروح لديوانه إلا أنه لم يكن لنا فضل الاختيار بينها. حيث اعتمدنا على شرح البرقوقي نفسه لا لشيء إلا لتوفر هذا وغياب تلك الشروح.

كما أقول هنا ـ وللأمانة العلمية فقط ـ أنه غاب عن البحث مصادر ومراجع كان لحضورها مجرى آخر في مسار البحث. ويأتي في مقدمتها شرح ابن جني لديوانه باعتبار ابن جني لازم الشاعر وحاوره عن كل معنى من معاني كل بيت. ثم هناك كتاب آخر بدا لنا مهما أيضا وهو كتاب البديعي المعنون "الصبح المنبي عن حيثية المتنبي" لأنه كان مرجعا لكل الدراسات التي جاءت بعده تقريبا. وفي غياب هذين المصدرين رجعنا إلى طائفة أخرى من المصادر والمراجع. فبالإضافة إلى شرح البرقوقي اعتمدنا على كتاب طه حسين "مع المتنبي" ثم كتاب بلاشير "أبو الطيب المتنبي" ثم بعض الكتب التي أرخت للأدب العربي إضافة إلى مراجع أخرى وأبحاث علمية جاءت متفرقة في ثنايا دوريات. أثبتنا كل ذلك ضمن قائمة ثبت المصادر والمراجع.

وفي الأخير أعيد وأقول إنها مجرد محاولة للتقرب من شاعر كتب عنه العام والخاص، ولست أزعم لها الكمال فإن أخطأت وقصرت فمن نفسي ومن الشيطان وأرجو أن تتيح لي الأيام تلافي ما أمكن من ذلك. وإن وفقت ـ وهو ما أصبو إليه ـ فمن الله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

أحمد ابالصافي جعفري

تلمسان جوان 1993م